التبعية اللغوية وأثرها على النهضة والتنمية العربية

د.هاجد بن دميثان الحربي
أستاذ الأدب والنقد الحديث المشارك،قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود- الرياض
hgg55@hotmail.com

المستخلص

تناقش هذه الدراسة إشكالية اللغة الأجنبية في التعليم العربي وأثرها في مسار النهضة والتنمية الوطنية معتمدة على المنظور الحضاري الجديد بشأن اللغة ودورها في التنمية البشرية وما تقوم به التبعية اللغوية من تفكك النسيج الاجتماعي وهجرة الكفاءات والتفريط بالتنمية المستدامة، وفي سياق هذه المناقشة تستعرض الواقع اللغوي بشيء من التحليل الدقيق القائم على التجارب اللغوية الأخرى وراهن التجربة العربية لفهم آلية التخطيط اللغوي ورصد حيثياته بين الواقع والمأمول.

الكلمات المفتاحية: التبعية اللغوية، التطور اللغوي، اللغة العربية، التنمية، النهضة، السلطة اللغوية.

المقدمة

التطورات المذهلة في الحضارة الإنسانية المعاصرة لم تترك شيئًا في جميع مجالات الحياة، وأصبحت تمارس دورها التفكيكي في كل شيء، فتغيرت الأساسيات وتصدّعت الثوابت ونوقشت المسلمات، ولم تكن اللغة بمنأى عن ذلك كله، بل إنها أصبحت حجر الزاوية في كل شأن، والتقدم الذي وصلت إليه العلوم الاجتماعية واللسانية قد تجاوز حصر اللغة في وظيفتها الاتصالية وأدرك أنها أهم عناصر الإنتاج البشري، وعرف دورها الرئيس في تنمية الفكر واقتصاد المعرفة، فأصبحت وطنا للتنمية وحاضنا للمعرفة لأن ((اللغة هي الأداة التي تمكّن الفرد من النفاذ إلى مصادر المعلومات، وامتلاك المعرفة، واستيعابها، واستثمارها في إنتاج معارف جديدة. ومن هنا أصبحت اللغة والسياسة اللغوية في قلب العملية التنموية أو ركيزة لها))(1)، وأضحت وسيلة مهمة للسيطرة على الاقتصاد العالمي وسوق المعلومات، وهي الآلية الجديدة في الاستعمار الجديد بعد التخلي عن الهيمنة العسكرية التي قوّض مهمتها وأهميتها الوعي الحضاري الجديد، وهذا ما تؤطره النظرية اللغوية في تحولها الراهن نحو اقتصاديات المعرفة وسوق اللغات وما يدخل في نطاق هذا التحول من مفاهيم ومصطلحات لغوية كالسياسة اللغوية والتخطيط اللغوي واقتصاد المعلومات والسير بذلك نحو التنمية البشرية وأدبيات الدراسات الاجتماعية.

أدرك الوعي العالمي الجديد أهمية اللغة في التنمية البشرية واقتصاد المعرفة وحرب المعلومات، فشرعت كل الدول المتقدمة ثقافيًا واقتصاديًا في

---

1. (1)علي القاسمي ومجموعة مؤلفين، التخطيط والسياسة اللغوية، (الرياض: مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، ط1، 1417ه)، ص17.

صياغة خططها التنموية وسياساتها النهضوية على أساس هذا الإدراك، وعلى ضوء هذا الإدراك كان تأسيس المجلس الثقافي البريطاني كجزء مهم في خطط الإمبريالية الجديدة، إذ((لم يدرك البريطانيون الحاجة للترويج لمصالحهم في الخارج بالدبلوماسية الثقافية إلا متأخراً، فقد قام الفرنسيون والألمان بالترويج للغاتهم وأسسوا المدارس في الخارج في القرن التاسع عشر، وجاءت الأموال من المصادر العامة والخاصة))(1)،كما أنه في جانب آخر يفسر التحالف الأنموذجي بين أمريكا وبريطانيا في سبيل دعم التطور التنموي والاقتصادي بين الحليفين الرئيسين، ولذلك يقول مدير سلسلة المدارس الديناميكية لتعليم اللغة الإنجليزية حول العالم:((كنا في السابق نرسل شحنات الأسلحة والدبلوماسيين إلى بلدان العالم، أما اليوم فإننا نقوم بإرسال مدرسي اللغة الانجليزية))(2)، ولكن الدول المتقدمة الأخرى أو التي تنشد تقدماً معيناً لم تغفل عن خلفية هذا التحالف وسعيه لخدمة المصالح الاقتصادية والثقافية في آلية جديدة للهيمنة من أهم ركائزها اللغة الانجليزية، ولذلك اشتد ولايزال على قدم وساق ما يسمى بحرب اللغات أو صراع الثقافات وفي بعض التحول المفاهيمي حرب المعلومات، يعكس ذلك كله تطور الفكر المعاصر ووصوله إلى وسائل الهيمنة الجديدة، وبذلك ندرك أن مفهوم السلام العالمي وحظر الأسلحة المدمرة لم تكن بمبادئ إنسانية بريئة تماما -كما يروّج لذلك- بقدر ماتعني فسح المجال لآلية الهيمنة المعاصرة والحروب الاقتصادية الناعمة، وتشبه هذه الحالة- إلى حد ما- ما تؤطره المفاهيم السوسيولوجبة الجديدة حينما أولت

---

2. (1)روبرت فليبسون، الهيمنة اللغوية، ترجمة(سعد الحشاش)، (الرياض: جامعة الملك سعود، 2007م)،ص203.
3. (2)السابق، ص13.

اهتماماً خاصاً بالعنف الرمزي كمقابل لمصطلح العنف المادي وما يحققه المصطلح الأول من نتائج مذهلة عند الممارسة على حساب ضآلة مايمكن تحققه في المصطلح الأخير.

ولكن الوطن العربي في خططه التنموية لم يول قضية اللغة ما تستحقه من اهتمام في هذا المجال بل إنه في أغلب مشاريعه النهضوية قد اعتمد على التبعية اللغوية وظهر بصورة المستهلك المأمول في سياسات التنمية العالمية، وذلك بسبب أثر الاستعمار السابق للوطن العربي أولاً؛ والخطاب التراثي الذي فقد فاعليته بشأن القضية اللغوية ثانياً، و((لقد باتت إشكالية اللغة العربية، من المحورية والشمولية والتعقّد، بحيث يستحيل تناولها انطلاقا من منظور التخصص الضيق، أو النظرة الاجنماعية القاصرة، ومن الخطورة والأهمية، بحيث يصعب إرجاؤها أو تناولها من دون إستراتيجية واضحة للإصلاح اللغوي الشامل، وذلك في إطار خطة قومية أكثر شمولا، لإعداد مجتمعاتنا العربية لدخول عصر المعلومات))(1)، والسير في طريق التنمية البشرية، واتباع الآليات الموصلة إلى سلوك هذا الطريق بصورة دقيقة وصحيحة، فالتنمية العربية أصبحت ضرورة ملحة يكشف واقع مجتمعاتنا أنها إشكالية رئيسة تحتاج إلى معالجة شاملة تعي ما كان غائبا أو مهمشا فيها، إن عدم إلمامنا بالقضية اللغوية يكمن في أنه ((يقتصر تناولنا لهذه الإشكالية- في أغلب الأحوال- على الجوانب التعليمية والمصطلحية، بقول آخر: إننا نتصدى لمعضلة اللغة على مستوى الأطراف الهامشية؛ تجنباً للخوض في المناطق الحساسة التي تتداخل فيها قضايا اللغة العربية مع قضايانا الاجتماعية وأمورنا الدينية وسياساتنا

---

4. (1)نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات،(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،2001م)،ص235.

الوطنية والقومية))(1)، ويأتي على رأس هذه القضايا التنمية الاقتصادية التي قد تطورت سلوكيا وإجرائيا إلى التنمية البشرية لدورها الفاعل في اقتصاديات المعرفة، وجعلت اللغة مقياسا رئيسا لتحقق تلك التنمية، وهذا ما ستحاول هذه الدراسة مقاربته والعمل عليه في مناقشة تعتقد أنها قد تختلف عن السائد والمألوف في القضية اللغوية.

المحور الأول/ التبعية اللغوية بين التجربة العربية والتجارب اللغوية الأخرى.

على أساس الاستهلال السابق تبدو مقاربة الازدواجية اللغوية غير واعية بالإشكالية في التبعية اللغوية، إذلم تعرف الأمة العربية مزاحمة اللغة الأجنبية لها على أرضها إلا بعد الاستعمار في العصر الحديث، والسبب في ذلك أن الثورة العربية ضد الاستعمار كان هدفها الاستقلال السياسي والعسكري ولم تكن تأبه بالاستقلال الثقافي وأثره المهم، وكان من آثار هذا الانشطار في الفهم والرؤية أن الاستقلال العربي قد حدث بصورة من تقدم برجل وتأخر بأخرى فبقي عالقا...، وهذا ما يسميه أحد كبار المهتمين بآثار الاستعمار على العربية بـ (التخلف الآخر) ويعني به: ((تخلف تلك المجتمعات لغوياً وثقافياً في استعمال لغاتها وثقافاتها في المقام الأول في أوطانها، من ناحية، وشعور بمركب النقص (تخلف نفسي) إزاء الغرب من ناحية ثانية))(2)، ثم يمضي قائلاً: ((الفرد يصبح يتصف بأقصى أعراض التخلف الآخر عندما تصبح لغته الوطنية لغة ثانية في استعماله اللغوي اليومي في مجتمعه

5. (1)السابق،ص234.

6. (2)محمود الذوادي، المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها، (الرياض، مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م) ص19.

المستقل))(1)، ويشخص أسباب ذلك في أنه: ((يشير ذلك إلى مدى استمرار رواسب الاستعمار اللغوي والثقافي الفرنسي بين النخب الثقافية في هذه المجتمعات وذلك بعد عقود من الاستقلال، ولا ريب أن مثل هذا السلوك اللغوي النافر من اللغة العربية لدى صفوة المتعلمين والمثقفين في المغرب العربي يشير إلى أنهم يشكون بقوة من فقدان شعور الاعتزاز باللغة العربية))(2) ، ومع أن هذا الطرح يركّز على الآثار الثقافية وما يندرج في تبعيتها من عوامل الهوية والانتماء الوطني إلا أنه يعكس مدى ما وصلت إليه المجتمعات العربية من الاستلاب اللغوي وفقد الانفعال بالهوية الثقافية، مما يعني فوضى وضبابية الشعور النهضوي في المجتمع بعد الاستلاب اللغوي الذي كانت تمارسه دول الاستعمار وما بقي من آثاره بعد الاستقلال.

بهذا ندرك آثار الاستعمار الباقية في الثقافة العربية ودورها الذي لا يزال فاعلاً في تأخر نهضة الوطن، ولعل من الجدير ذكره أن النهضة العربية كانت في حيز التحقق في مطلع ما يعرف بالنهضة العربية الحديثة إبان حكم محمد علي باشا حينما انتبه العرب إلى تقدم الغرب زمن الثورة الصناعية فتوجهوا بقرارات سياسية صارمة وقناعات قومية جادة نحو التعريب إذ تم تأسيس المدرسة العليا للطب في مصر سنة 1832م، وترجم فيها ما يزيد على 86 كتابا في مجالات الطب والصيدلة والكيمياء، وما لبث تلك الكتب أن انتشرت في أنحاء العالم العربي والإسلامي(3)، وتخرج في الطب ما يزيد على ألف طبيب من تلك المدرسة، كما تأسست كلية الطب في دمشق

---

7. (1)السابق،ص20.
8. (2)السابق،ص26.
9. (3)انظر: أنور الجمعاوي ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013م)، ص186.

و انتهجت تدريس العلوم الطبية باللغة العربية، وكانت جهود رفاعة الطهطاوي ورفاقه في هذه المرحلة المهمة لا تزال تؤتي ثمارها في يقظة الضمير العربي وتطوره الثقافي، ولكن هذه الصحوة النهضوية التي لو قدر لها الاستمرار لكانت نقلة نوعية في تاريخ وحضارة الأمة العربية قوبلت بانتكاسة ثقافية مؤلمة حينما دخل الاستعمار الإنجليزي إلى مصر فتغير التوجه الثقافي وتراجعت حركة الترجمة والتعريب وتحول التعليم في الطب والتخصصات العلمية الأخرى من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية.

وفي هذا السياق دائما ما تحضر المقارنة بين التجربة الجزائرية والتجربة الفيتنامية في الثورة على الاستعمار الفرنسي، حيث كانت تلك الثورة بقطبيها (الجزائري والفيتنامي) متشابهة في حركتها وتضحيتها وروحها القومية، ثم نجاحها في تحقيق الاستقلال وطرد المستعمرين، ولكن نتيجة هذا الاستقلال وما آل إليه مختلفة كل الاختلاف، لأن الفيتناميين جعلوا هدف ثورتهم تحرير الأرض وتحرير الذات، أما في الجزائر فلم يكن هناك اهتمام بالنقطة الأخيرة، فبقي الاستعمار جاثما على روح الشعب الجزائري بآثاره الثقافية واللغوية، ونتج عن ذلك الاستلاب الثقافي وهدر التنمية والنهضة الوطنية، حققت فيتنام بفتنمة لغتها نهضة صناعية وتنمية تقنية وأصبحت في مدة يسيرة بعد استقلالها بلدا يضرب فيه المثل بتوطين المعرفة وتنمية الإنتاج البشري، كل ذلك حدث للفيتناميين مع أنهم مكثوا تحت الاستعمار ما يزيد على ثمانين عاما، وخرجوا منه شبه ممسوخين من هويتهم وثقافتهم، فالتعليم كان فرنسيا بكامله، وسوق العمل والتسويق والإدارة كانت كذلك، ولكن روح الإصرار واستهداف التحرر الحقيقي وبناء الذات المفككة كانت بإرادة قومية وقرارات سياسية صارمة، حينما قال الزعيم الفيتنامي هوشي منّه:

"حافظوا على صفاء لغتكم كما تحافظون على صفاء عيونكم"(1)، ولم تكن هذه المقولة مجرد شعار لنشوة الانتصار، ولكنها تحولت إلى إرادة عملية وممارسة تطبيقية، فشرعوا في تأسيس مؤسسة كبرى لتدبير شأن اللغة والترجمة ونقل المصطلحات، وأوقفت المدارس والمعاهد والجامعات سنة كاملة حتى تم الانتهاء من مشروع الترجمة الجبار وفتنمة التعليم، فابتكروا بلغتهم الوطنية ما يزيد على ربع مليون مصطلح علمي وتقني، وفي التقارير والتصنيفات العالمية الصادرة عن منظمة التعاون والتنمية احتلت فيتنام المرتبة (12) عالميا على أساس العلوم والرياضيات متقدمة بذلك على الولايات المتحدة الأمريكية وكثير من الدول الصناعية المتقدمة في هذا التطبيق(2)،كل ذلك حدث مع أن اللغة الفيتنامية لم تكن تمتلك في قوتها وتاريخها ما تمتلكه العربية، كما لم يكن لها من الانتشار الجغرافي والعمق الثقافي ما للعربية بهذا الخصوص. قد تكون التجربة الفيتنامية مدهشة في استقلالها الثقافي وبناء نهضتها، ولكن المهم فيها كيف تبرمج الاستقلال في الفكر القومي برؤية شمولية متكاملة، ثم كيف تحوّلت هذه البرمجة الفكرية إلى إطار عملي جاد، ولكن هذه التجربة ليست وحيدة عصرها، فجميع الشعوب والمجتمعات الأخرى التي تحررت من استعمار مسيطر أو خرجت من حروب مدمرة أو استفاقت من نكبات سياسية واقتصادية مؤلمة كانت لها تجارب مماثلة في هذا المجال، فاليابان التي خرجت من الحرب العالمية الثانية بانهزام كاسح وانهيار عسكري وسياسي كامل حينما استسلمت تحت وطأة القنبلة الذرية الأمريكية ((وفرض الأمريكيون شروطهم المجحفة على شعبها وهم مستسلمون (مثل تغيير الدستور الياباني وحل

---

10. (1)عثمان سعدي، جريدة الرياض، العدد(16623)،28/ 12/ 2013م، ص13.

11. (2)انظر:سيف المعمري، جريدة الرؤية العمانية، 26/ 6/ 2016م.

12. https://alroya.om/post/165762 الموقع الإلكتروني، تاريخ المشاهدة 26/ 7/ 2018م.

الجيش ونزع السلاح وتغيير العلم الياباني...إلخ، فقبلت اليابان بتلك الشروط باستثناء شرط وحيد رفضت تماما التخلي عنه، هو إسقاط لغتها القومية من مؤسسات التعليم الياباني))(1)، وباعتدادها الذاتي بلغتها القومية بنت نهضتها وتنميتها التي تعد أنموذجا مثالياً في الحضارة المعاصرة، وبمثل هذا الاعتداد باللغة القومية ما حصل في كوريا بعد تحررها من الاستعمار الياباني لها حين كانت اليابانية لغة التعليم، فنهضت بإحساسها القومي من هذا الاستعمار الثقافي واستطاعت توطين المعرفة بلغتها وتكوين ثورة صناعية مبهرة جعلتها في مصاف الدول المتقدم في مدة زمنية وجيزة، بقي أن نعرج ونحن بهذا الصدد على إسرائيل التي نبتت في قلب الوطن العربي فأحيت لغتها المنقرضة، وبث فيها روح الحياة وآمنت بهذا الاختيار وكرست العمل عليه في وقت يرضخ فيه العالم تحت وطأة لغة عالمية مستبدة، وحاليا يدرس الطب في كلية إسرائيل بالعبرية على حين يدرس باللغة الإنجليزية في كبرى عواصم الدول العربية، وينفق على البحث العلمي في العبرية أكثر مما ينفق على البحث العلمي في الوطن العربي بجميع دوله، والجامعات الإسرائيلية تحظى على تصنيف متقدم جدا في قائمة الجامعات العالمية، وهنا قد يرد تساؤل عقلاني يقول: لماذا لم تلجأ إسرائيل إلى لغة العلم والمعرفة والمصطلحات التقنية والصناعية المعاصرة مما سيوفر عليها كلفة مالية باهظة وجهودا تخطيطية مزرية لاسيما وهي ليس لديها لغة قومية قائمة؟

قد تكون الإجابة عن هذا التساؤل صادمة، وقد تكون مثيرة، وقد تكون محبطة، وقد تكون أخيرا ملهمة وموقظة، وقد تتعدد الإجابات مستوعبة كل هذه الردود الفعلية...، لقد كان التخطيط اليهودي بشأن اللغة تجربة فريدة في العالم

---

13. (1)أحمد حسين حسنين ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص363.

المعاصر، وكما فهم الفيتناميون واليابانيون والكوريون...إلخ أن الاستقلال الثقافي أهم من الاستقلال السياسي أو الفكري كذلك فهمت إسرائيل أنه لا هوية بدون لغة ولا وحدة بعد الشتات والتشرذم الذي كان يعانيه الشعب اليهودي إلا بلغة تلم هذا الشتات وتوحد واقعه المبعثر في أنحاء الأرض وثقافاتها المختلفة، وفي سياق هذا الفهم أدركوا أن الركون إلى الواقعية لن يكون إلا تثبيطا وعائقا عمليا دون تحقيق حلم بعيد المنال، فاستوعبوا الاشتراطات وواجهوا التحديات، ((لكن مقياس الواقعية المزعوم لم يكن ليقضي على اللغة الموحدة التي اتخذت اللغة الرسمية الجامعة التي تجمع اليهود أينما كانوا، بموجب اختيار سياسي لأن توحيد اليهود في أرض واحدة ولغة واحدة لم يكن إلا حلما بعيدا، على نحو ما عبّر عنه المستشرق نولدكه، لكنه أصبح حقيقة ملموسة بسبب سياسة الدولة في توفير عوامل التوحيد التي تعبر عن هوية محددة))(1)، وقد يقال في صدد استعراض هذه التجارب عند الشعوب والمجتمعات الأخرى بأن الأمة العربية لم تصل إلى درجة المعاناة الفيتنامية أو اليهودية خصوصا في جانبها اللغوي؛ إذ ما زالت العربية متسيدة المجال الديني والأدبي وكذلك الإعلامي إلى حد ما، مما يعني أن هوية الأمة لم تخضع لتحديات حقيقية أو ضغوطات مباشرة، ولو حدث ذلك لكان هناك ردة فعل ويقظة قومية جادة، وهذا القول الشبيه بالاعتراض وتمريض الهمم والحماس النهضوي قد يكون مقبولا وصادقا في آنه وواقعه، ولكنه كارثي في أثره وتبعياته، فالواقع اللغوي يتجه نحو الانحسار والتراجع، والتعليم يلهث بشغف لم يسبقه مثيل نحو التغريب اللغوي، ناهيك عن العولمة وتحدياتها وأسلوب الحضارة العالمية الجديدة بتسارعها المذهل...، فما تدركه اليوم قد لا تدركه غدا، والوقاية خير من العلاج، وإرجاء التخطيط أو إهماله سيجعل المستقبل رهن المجهول، فهذا الواقع اللغوي

14. (1)عبدالرحمن بودرع ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص119.

لا يسير في الاتجاه الصحيح، وهو أشبه ما يكون بمرحلة الموت البطيء، وفي جانب آخر فإن هذا الواقع المتردي الذي لم يصل بالأمة إلى مرحلة الانهيار الكامل قد يجعل مسألة الإنعاش والتخطيط النهضوي الواعي لا تزال في مرحلة الممكنات ولم تصل إلى المستحيل أو المستعصي، ولكن ذلك يحتاج إلى عمل دؤوب وتخطيط ممنهج وإرادة سياسية جادة تحظى بقناعات شعبية وتأييد قومي على مستوى العمل والشعور.

كل إنسان يحمل انتماء وهوية معينة تتحكم فيها وتصقلها مكونات بيولوجية وسيكولوجية في مرحلة متقدمة من عمر الكائن البشري، وهذا التشكل الانتمائي والهوياتي قد لا يخضع لإدراك الإنسان وشعوره، ولكنه يتحقق لاحقا بإدراك مقصود وإرادة ذاتية، وهنا في موضوع الهوية والانتماء المتبلور في كل كائن بشري يرد تساؤل مشروع عن دور هذا الموضوع عند من ينادون بالتغريب اللغوي في مجتمعاتهم، ومع أن هذا التساؤل قد يبدو سطحيا في قيمته وحضوره الأولي إلا أن إجابته الواعية تجعل منه مهما في معالجة قضيته وتأطير إشكالياتها، فمن أسباب النظرة الأولية لسطحية هذا التساؤل أن الإجابة عنه غالبا ما تكون عاجلة وفي تنميط غير عقلاني يحصره في عدم الشعور بالانتماء أو عدم الاعتداد بالهوية أو غياب الانفعال الوجداني بالثقافة وخصوصيتها؛ وكأن الإنسان خارج تكوين منظومته النفسية والاجتماعية المعنية، فالإجابة عن هذا التساؤل تحتاج إلى وقفة متأنية لأهميته أولا، ونظرا لما شاب معالجته غالبا من ضيق النظرة وعدم المتابعة الدقيقة، ومقاربة هذه القضية بهذه الطريقة لن تؤدي إلى حلول عملية ومعالجة جماعية ناجعة، ولكنها ستعمد إلى إقصاء فريق معني بالمعالجة وصياغة الحلول، وسيكون السجال المفقر مستأثرا بنصيب الاحتواء المثمر والحوار الفاعل، فيجب أن يكون هناك تحديد لنقطة التقاء وتقارب تكون مركزا للانطلاق، فالهوية والانتماء القومي

ليست -رغم أهميتها- مجالاً للمساومة والنقاش، وتجريد طرف معين من وطنيته أو هويته من قبل طرف آخر بسبب وجهة نظر مختلفة أو طرح رؤية مغايرة لم يعد نمطا حضاريا في ثقافة المجتمعات المدنية المعاصرة، والذين يطرحون مثلا فكرة التعليم باللغة الأجنبية لا شك أنهم يؤمنون بالمواطنة والانتماء ولكنهم يرون ((أن الاهتمام بدمج اللغة في التفاعل العلمي ترف ذهني لا يسعفنا الوقت للسماح به، ويرى هذا الفريق- في أحسن الأحوال- تأجيل تلك المهمة اللغوية إلى أن يتم اكتساب العلم والتقنية، وبعد أن يصبح للأمة العربية حضور قوي ومؤثر على الساحة العلمية))(1)، فالمنطلق الذي يتأسس عليه طرحهم بتسريع اكتساب المعرفة العلمية بأبسط الطرق وأسهلها تناولا، وتأجيل القضايا الأخرى المترتبة على هذا الاكتساب المعرفي إلى حين النضج المعرفي والتقدم النهضوي، ودائما ما يقترن طرحهم بأهداف برقماتية حاضرة تلح على ضرورة التكيف للتعليم والمتعلم مع سوق العمل، ((واعتبار عولمة التعليم تنطوي على إيجابيات متعددة، منها الضغط باتجاه تحرير خدماته وتنويع مؤسسات وبرامجه وضمان فرص عمل جيدة للخريجين في سوق العمل المعولم والتعامل مع القطاعات الأجنبية ذات الدخول المرتفعة وتوسع الاختيارات والبدائل التعليمية المتاحة أمام المواطن العربي، كما تضغط دينامياتها من أجل التنوع في إنتاج المعارف وتداولها واكتسابها))(2)، ليأخذ بالتالي هذا الطرح منحى إنسانياً يندفع نحو منظومة أخلاقية وديمقراطية يسوّغها بشكل أو بآخر ما يعانيه الإنسان العربي في مجتمعه من ضيق العيش وضآلة الفرص وتحديات الحياة الاجتماعية المتدنية، وحينما تحضر مثل هذه الأمور كبنية نصية رئيسة في خطاب أصحاب تلك الرؤى وأطروحاتهم النهضوية فإنهم يكتسبون قوة

15. (1)خضر القرشي، إكسير التنمية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1 ، 2016م)، ص331.

16. (2)أحمد حسين حسنين ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص346.

ذاتية تدفعهم نحو المواجهة مع الأطراف الأخرى التي تفتقد غالبا عقلانية الطرح ومنطقية المعالجة حاملة شعار الاتهامات والتخوين الثقافي، ولذلك يجدون ما يلوذون به في السجال والمماحكات الفكرية فيسعون إلى تهميش الرؤى التي تواجههم بأنها لا تعدو أن تكون خطابًا حماسيا انفعاليا لا يناسب متطلبات التنمية المعاصرة وتحديات العولمة الجديدة.

وأمام هذه الرؤى المتناحرة والطرح التقابلي الذي شطر فكر الأمة النهضوي بشأن اللغة الأجنبية ظلت تتقدم تقدما كاسحا في التعليم العربي وارتقت إلى مستويات جديدة وحضور باذخ في المعاهد والجامعات ثم تسربت بقوة هائلة إلى مراحل التعليم المتقدمة، وأخيرا تجاوزت كلّ ذلك لتدخل في النشاط التجاري والإعلامي، وتنامى الشعور الاجتماعي بأهميتها وضرورتها؛ ذلك الشعور الذي يقابله تبلد الإحساس تجاه العربية، وفي سياق هذا كله كلّت جهود النهضويين المقاومين واعتراهم الملل والإحباط وآثر كثير منهم الانسحاب وركوب قطار الحياة السائرة خوفا من الانتقاد والوصم بالرجعية والتخلف.

أمام هذا الواقع المزري الذي آلت إليه النهضة الوطنية، أين نحن الآن؟

إننا نعيش بوهم آخر وغفلة جديدة في (الآن – الهنا)، وما ينبغي أن نتداركه الآن هو أن تراجُع العربية السابق وتقهقرها في ميادين المعرفة الجديدة وسجنها في التراث والأدبيات لم يكن إلا استراحة محارب ينبغي أن يعود مجددا ويدخل في أزمة النهضة وإشكالية التنمية بعد اكتشاف تشتت البحوث وإهدار الكفاءات وضبابية الإستراتيجيات، فبعد ما يقارب القرن الكامل من الزمن ما الذي خرجت به تجربة التغريب اللغوي، وما الذي تحقق لنا من اللغة الأجنبية التي أفسحنا لها مجالا واسعا ومنحناها فرصة كافية للفحص والاختبار، سنجعل هذه القضية في محددات زمانية ومكانية وسنعتمد على أسلوب المقارنة لضبط القضية وحصرها

من التشعبات والخروج عما يمكن معاينته والإمساك به، ففي القرن العشرين أصبحت اللغة الأجنبية لغة التعليم في التخصصات العلمية والتقنية وما ينضوي تحتها من علوم الصحة والهندسة والصناعة...إلخ، وعملا بالمعيار الذي أشرنا إليه سابقا في ضبط القضية سوف نقتصر على مجال العلوم الطبية لأنه من أهم هذه التخصصات أولا، ولوجود تجربة تؤهله للمقارنة ثانيا، ولأنه قد استأثر بالنصيب الأكبر من اللغة الأجنبية أخيرا، وأمام هذه الاعتبارات سنكون قادرين على مقاربة هذه القضية بشكل دقيق كما يلي:

كنا قد أشرنا مسبقا إلى أن النهضة العربية بعد حملة نابليون قد حققت نجاحا محمودا ومؤثرا في نقل المعرفة آخذة بآلية التعريب والترجمة؛ ولكنها انتكست بعد دخول الاستعمار حينما استبدلت اللغة العربية بالإنجليزية في كليات الطب المصرية، وكانت دوافع ذلك الاستبدال نهضوية في مبادئها وتوجهاتها، وقد بدأ هذا التحول في أواخر القرن التاسع عشر، ومع مرور قرن كامل أصبح هناك ما يزيد على مئة كلية طب تدرس باللغة الإنجليزية معظمها في المشرق العربي (مصر – الخليج العربي – الشام – العراق) ويقابل هذا الكم الهائل خمس كليات تدرس الطب بالعربية في قطر عربي وحيد (سوريا)، وأمام هذه النسبة غير المتكافئة وخلال مدة زمنية ليست بالقليلة لا بد من طرح التساؤلات الآتية:

- هل حقق التعليم باللغة الأجنبية تقدماً علمياً وأثراً معرفياً يسهم في تنمية الوطن العربي؟

- هل كان هناك اختلاف بين الطلاب السوريين الذين درسوا الطب بالعربية والطلاب العرب الآخرين الذين درسوا الطب في اللغة الإنجليزية من حيث التحصيل العلمي، وإتقان مهارات التخصص الضرورية، والقدرة على مواصلة التعليم وكتابة البحث العلمي...إلخ؟

وقف باحث عربي متخصص في الطب على أبعاد هذه القضية في أبحاث

متعددة جمعها في كتاب أسماه بـ(تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية)، ويقول الدكتور زهير السباعي بأنه قد زار كليتي الطب في دمشق واللاذقية وحضر هناك عددا من المؤتمرات الطبية والمحاضرات التدريسية فوجد الطلبة والأساتذة يتحدثون بحيوية وانطلاق، ويلمون بقضايا تخصصهم ويتناقشون بطلاقة واضحة، ويشير إلى أن ذلك نكاد نفتقده في كليات الطب التي تدرس باللغة الإنجليزية، وفي مقام آخر يؤكد الباحث على نتائج وإحصائيات عالمية، ففي امتحان المجلس التعليمي للأطباء الأجانب الذي تعده الجامعات الأمريكية بشكل متكرر لآلاف الأطباء من الدول التي تعلم الطب بلغاتها والهدف منه أن يكمل أولئك الطلبة دراساتهم العليا أو يتمكنوا من العمل بمهنتهم في الولايات المتحدة الأمريكية...، في هذا الامتحان ولأكثر من مرة أظهرت نتائج الأطباء السوريين نجاحا مدهشا تفوقوا فيه أحيانا بنتائجهم على بعض طلبة الدول الأوروبية ودول أمريكا الجنوبية وغيرها من المجتمعات الأخرى التي تعلم الطب بلغاتها الوطنية(1)، وخلاصة المقارنة في هذه المعادلة التي قد لا تكون متوازنة في طرفيها من حيث الكم والكيف أن الطبيب العربي الذي درس الطب بلغته العربية لم يكن أقل من زميله العربي الآخر حينما درس بلغة أجنبية، فالأداء المهني والمهارة العملية والقدرة على التطور إن لم تكن متماثلة في كليهما فهي في الطبيب المتعرب أكثر كفاءة وأعم إفادة لقدرته على الانخراط في مجتمعه والمشاركة الميدانية في قضايا التنمية والتطور المتماسّة مع تخصصه.

هذه التجربة في تعليم الطب في الوطن العربي لا ينبغي تجاوزها دون الكشف

---

17. (1)انظر: زهير السباعي، تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية،(الدمام، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، 1995م)،ص83-85.

عن خصوصياتها وحيثياتها الأخرى المتعلقة بطرفيها المتقابلين (العربي – الإنجليزي)، حيث كان الطرف الأول يسير وحيدا في تجربته مختلفا عن ركب مجموعته (الأوطان العربية الأخرى) مما يعني الشعور بالاغتراب النفسي والاجتماعي علاوة على شح التواصل مع بيئته الإقليمية التي يقع فيها، إضافة إلى تدني الحالة الاقتصادية في بيئته المحلية، أما الطرف الآخر (طلاب الطب في اللغة الإنجليزية) فقد كان يسير في ركب جماعي تؤلفه مجموعة كبيرة جداً من الأقاليم العربية، مما يعني وجود فرصة كبيرة للتواصل بين الأقاليم في نشاطها التخصصي والتشارك المعرفي، علاوة على الإمكانات المادية المريحة خصوصاً في مثل دول الخليج العربي، ووفرة فرص العمل والوظائف وتداول هذه الفرص بين تلك الأقاليم، إضافة إلى الروافد المعرفية والعلمية من الدول المتقدمة في المصطلحات الطبية والابتكارات الجديدة دون الحاجة إلى التعريب أو الترجمة، كل هذه الأمور تجعل التجربة لم تكن متساوية بأي حال من الأحوال في المسارين المذكورين، ويؤكد الواقع الملموس وجود عقبة كبيرة من التحديات والصعوبات أمام طرف معين يقابله تذليل تلك التحديات أو تضاؤلها لدى الطرف الآخر، ومع كل ذلك لم يكن هناك اختلاف في التحصيل العلمي أو الممارسة العملية، وإذا وجدت فروق نسبية لأي طرف على حساب الآخر ارتفاعاً أو انخفاضا فليست بذات قيمة ملموسة أو مؤثرة في هذه المقارنة قياسا على ما يقدمه كل طرف من خدمات صحية لمجتمعه الذي يعيش فيه، لم نمارس تحيزا لصالح تجربة على حساب أخرى ولكن سعيا للمصداقية فإننا نجد أحد المصادر المهمة قد رصدت بلغة الأرقام إحصائية مهمة حيث ((تبين مصادر الجمعية الطبية العربية الأمريكية أن عدد الأطباء السوريين في الولايات المتحدة الأمريكية يفوق 6000 طبيب من أصل 15000 طبيب عربي، ويحتل الأطباء السوريون والمصريون المرتبة الأولى، كما يقدر عدد الأطباء السوريين المقيمين في ألمانيا ب 18000 طبيب من أصل عدد الجالية

السورية المقدر ب 59000 ألف))(1)، ولا تحتاج هذه الإحصائية الدولية إلى تعليق أو استنتاج لما في مجمل عبارتها من الوضوح .

فاجأت هذه التجربة الدقيقة في أسلوبها المقارناتي الكثير من المفكرين النهضويين والمهمومين بقضايا الأمة وتقدمها الحضاري، كما أصابت بالإحباط بعض المنادين بالتعليم الأجنبي في الوطن العربي وشعر كثير منهم بخيبة الأمل والانتكاسة الأخلاقية تجاه الهوية والثقافة وروابط الوحدة والانتماء، وتيقظ الفكر العربي بعد شعوره بتفريط شديد وسبات طويل، فتوالت المؤتمرات والندوات وعقدت القمم العربية في أعلى مستوياتها وأصدرت الكثير من القرارات والتوصيات بقوانين سياسية وتشريعات قانوينة، ((ومن ذلك ندوة تعريب التعليم الطبي والصحي التي عقدت في دمشق سنة 1988م، والتي شارك فيها ثلاثة عشر وزيرا وأربعون من عمداء كليات الطب في العالم العربي، وقررت هذه الندوة أن يكون عقد التسعينيات هو عقد التعريب الطبي))(2)، ثم بعد ذلك انعقد المؤتمر الإقليمي لتعريب الطب عام 1999م وقد عقدته منظمة الصحة العالمية في القاهرة وأوصى المؤتمر بتطبيق التعليم الطبي باللغة العربية على الفور في الوطن العربي، وقد جاء في توصياته: ((يؤكد المؤتمر أن تعليم العلوم الصحية باللغة الأم عمل ثقافي وحضاري وعلمي يضمن حسن الاستيعاب ويسر العملية التعليمية مما يؤدي إلى تحسن أداء الخدمات الصحية ورفع المستوى الصحي بوجه عام، ويسجل المؤتمر بكل اعتزاز تلك الصحوة النشيطة لحركة تعريب الطب الصحي والطبي التي سادت العالم

---

18. (1)سلام الكواكبي، الهجرة الدولية والتنمية في بلدان الإسكوا:التحديات والفرص،(نيويورك:هيئة الأمم المتحدة، 2011م)، ص72.

19. (2)حمد آل فريان، جريدة الجزيرة، (الرياض، العدد13974 ، 1/ 1/ 2011م)، ص14 .

العربي في السنوات الأخيرة)) (1)، وعلى مستوى تمثل أكبر تبنت القمة العربية المنعقدة في عامي 2008م ثم 2009م توصيات بضرورة تعريب الطب في الوطن العربي، ثم شرعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التابعة لجامعة الدول العربية بصياغة هذا المشروع وبدء العمل به...إلخ، ولكن جميع هذه التشريعات لم تخرج إلى حيز التنفيذ، وكأنها إنما كانت لدغدغة مشاعر الحماس الوطني وتهدئة الطموحات النهضوية فيه.

المحور الثاني/ التبعية اللغوية بين الممارسة العملية والفهم الحضاري للغة.

بعد التحليل السابق للتجربة العربية في التبعية اللغويوية واعتماد منهج المقارنة فيها نوشك أن نكون قد أسهمنا بجزء كبير من التنظير لمحتوى المشكلة ولكنها لم تصل بعد إلى حد النضج والاكتمال، فيظل التساؤل حائراً والقلق قائماً في لماذا مع كل هذا التحليل والاستنتاج يظل التعليم باللغة الأجنبية باقياً؛ وكيف يتقدم الآخرون ونحن نتأخر؟ وتتفرع من هذه التساؤلات تساؤلات كثيرة تتعلق بها وتسير في نمطها، وقد أكدنا مسبقاً عدم اكتمال التنظير لهذه القضية، ولا نريد الآن أن نقع في شراك أزمة الخطاب النهضوي العربي حين يقوم بمباشرة معالجة مشكلاته قبل التنظير الكامل لمحتواها وأبعادها الاجتماعية المتعددة، وكنا قد لمحنا في العرض السابق أنه ليس هناك عجز لغة ولا ضعف إمكانيات ولا تصدع هوية ولا فقدان انتماء، ومن المؤسف أن أغلب النهضويين يناقشون هذه القضية في حدود تلك المعطيات، واستمراراً في تأطير القضية ووضعها المتفاقم نجد أنه لا بد من

---

20. (1)السابق.

الوقوف على نقطتين مهمتين تتعلق أولهما بالممارسة العملية أما الأخرى فتتعلق بالفهم الحضاري واستيعاب واقع الحضارة الجديدة.

ففي الممارسة العملية نجد أن المدة الزمنية الممتدة في التعليم باللغة الأجنبية وفيما يزيد على قرن من الزمن –رغم تدني مستوى إنتاجيتها– قد ألقت بظلالها على عقول المتخصصين في التخصصات العلمية والتقنية، وقد أوجدت لديهم ألفة لغوية وانسجامًا نفسيًا أحدثته دراسة تلك التخصصات ثم تدريسها والبحث العلمي فيها، لأن((إحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية في التعليم ينتج موقفا ثقافيا قيميا عند المتعلم يجعله متعاطفًا بشدة مع ثقافة اللغة التي يتعلم ويدرس))(1)، ونظرا لطبيعة المحتوى اللغوي في هذه التخصصات بأسلوبه العلمي والمصطلحي الدقيق فليس من السهل تصور هذا المحتوى بلغة أخرى نتيجة الممارسة والتدريب أو ما تصطلح عليه اللسانيات الحديثة الاكتساب اللغوي، فما اعتادوا عليه ومارسوه في لغة تخصصية دقيقة لن يكون الانتقال منه والتحول عنه سهلا وسيظل في عقولهم وتصوراتهم أمر بالغ الصعوبة بل إنه قد تحول إلى قيمة اجتماعية حدث تأطيرها في التنشئة التربوية وأصبحت سلوكا وعادة راسخة في اللاشعور، ونستطيع أن نصف هذا الموضوع بالاستلاب اللغوي الذي تؤكده اللسانيات الاجتماعية، وقد يكون من شواهده الواقعية ما يذكره أساتذة الجامعات والمعاهد الفيتنامية في مذكراتهم بعد أن أصدرت الدولة قانونها الصارم بفتنمة اللغة، فيذكرون أنهم في إعداد دروسهم وامتحاناتهم كانوا في بداية الأمر يجدون صعوبة بالغة وحرجا كبيرا لأن إعداد تلك الدروس وامتحاناتها كان يأخذ وقتا كبيرا منهم، ولكن ترجمة ذلك إلى الفيتنامية كانت تأخذ وقتا مضاعفا وجهدا كبيرا، ويقولون بأن ما يكون إعداده في ساعة

21. (1)أحمد حسين حسنين ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص397.

معدودة تستهلك ترجمته أسبوعا كاملا لأنهم قد اعتادوا على اللغة الفرنسية تعلما وتعليما.

فالاستلاب اللغوي يستولي على مدارك الإنسان ويوجه رؤيته ويتحكم في قناعاته ومواهبه، ويقودنا هذا التحليل إلى أن نتجاوز مناقشة الهوية والانتماء القومي إلى قضية العادة والسلوك الاجتماعي الذي تتحكم فيه تنشئة تربوية سابقة وممارسة عملية لاحقة لتصوغان معا شعوراً وجدانياً يؤثر في الرؤى والتصورات والمفاهيم، ولذلك تفقد قوانين وتوصيات التعريب فاعليتها وأثرها في قناعات المعنيين والمستهدفين بها، لأن القضية برمتها قد تحولت إلى مكونات ثقافية وسلطة معرفية لا يمكن خلخلتها وإزاحتها إلا بالعمل على تشكيل سلطة ثقافية مناهضة تتأسس في ثنائية (اللغة – الإنسان)، وسنستفيد من معطيات المفاهيم السوسيولوجية المعاصرة مثل: رأس المال الثقافي والعنف الرمزي وإعادة الإنتاج؛ واستخدام هذه المصطلحات في سوسيولوجيا التربية، فالعنف الرمزي استخدمه الباحث الفرنسي بيير بورديو وهو يقابل في هيئته العنف المادي، إذ إن العنف الرمزي يكون بواسطة اللغة والإيديولوجيات السائدة، وهو عنف لطيف ومهذب وغير محسوس، بل إنه يمارس دوره بطريقة سحرية لأنه غير مدرك بالنسبة لضحاياه، ويكون مجاله التطبيقي عبر الطرق والوسائل الرمزية الخالصة مثل التواصل وتلقين المعرفة، ويتحول هذا العنف غير المحسوس بواسطة اللغة إلى رأس مال ثقافي، وبغض النظر عن المحتوى المعرفي في هذا الرأسمال الثقافي فإن اللغة تظل الأداة والآلة الفاعلة في تشكيل ذلك المحتوى، وهنا يتداخل العنف الرمزي ورأس المال الثقافي مع إعادة الإنتاج بصورة عفوية لا واعية، هذه المفاهيم السوسيولوجية في الميدان التربوي قد نستفيد منها بشكل كبير في تحليل الظاهرة التي نحاول الإمساك بها وتأطيرها بشكل يخالف السائد والمألوف في أغلب طروحاتنا النهضوية، حيث يناقش بورديو في أعماله حول النظام المدرسي وفق المفاهيم السابقة أن ((اللغة التي نستخدمها في

هذا المجال لغة مهيمنة لكننا نجهل أنها مهيمنة، بمعنى نعترف بها ضمنيا كلغة مشروعة، وأي لغة مهيمنة تكون مشروعة عندما يُعترف لها ضمنيا بالمشروعية، وعندما تكون هيمنتها محط جهل من طرف من يتحملها، ويمكن أن نصوغ هذه الفكرة في قضية منطقية كما يأتي:

إن لغة (ص) تهيمن على شخص (ش) إذا كان هذا الأخير (ش) يجهل هيمنة تلك اللغة (ص) عليه.

يعترف الشخص (ش) بمشروعية (ص) نظرًا لـ (1) (2)؛ بمعنى أن مشروعيتها محددة بتوافر الشرطين الأولين.

ولم يتوقف بورديو عند نظرة المهيمن للسلطة على المستوى التفاعلي، وإنما ذهب إلى التشديد على إعادة إنتاج علاقات السلطة كبعد أساسي للهيمنة))(1).

قد لا نستغرب بعد هذا التحليل السوسيولوجي أن المنادين بالتعليم باللغة الأجنبية ينطلقون من رؤية نهضوية يؤمنون بها ويناضلون من أجلها، وتفكيك هذه الهيمنة اللغوية وسلطتها الثقافية لن يكون بين عشية وضحاها؛ بعد أن تشكلت في أجيال متعاقبة؛ ولكنه يحتاج إلى عمل دقيق وتخطيط لغوي متكامل مع عدم إغفال إستراتيجية الاحتواء والحوار المتوازن الفعال.

كما كان الفكر العربي قاصرا عن إدراك الفهم السوسيولوجي للممارسة اللغوية فإنه في زاوية أخرى يفتقد الوعي بمفهوم الحضارة الجديدة في محتواها اللغوي حين يصرف جل اهتمامه إلى مكونات تلك الحضارة المادية والاجتماعية العامة، دون التعمق في قضية اللغة وأثرها في تلك الحضارة، وقد يكون تطور

---

22. (1)حسن احجيج، نظرية العالم الاجتماعي قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو،(الرباط: مؤمنون بلاحدود، ط1، 2018م)، ص160.

اللسانيات البنيوية ومنهجها الوصفي كما عند الباحث الأمريكي بلومفيلد مهما في تشكيل وعي معقول حول شأن اللغة في الحضارة المعاصرة، حيث تبدو الحضارة محصورة في بنية لغوية جديدة في جميع اللغات، لغة (المصطلحات العلمية - المعلومات - التكنولوجيا - الابتكارات والمخترعات)، مما يجعل الحضارة ذات خصوصية لغوية، لغة ذات طابع علمي وتقني دقيق، فهو عصر ثورة لغوية لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية، فالابتكارات والمخترعات والتطور المعلوماتي والتكنولوجي بسرعته المدهشة ينعكس بشكل مباشر على اللغة، وكأنها تستجيب بدينامية مذهلة لدينامية الحضارة في محتواها التكنولوجي والمعلوماتي، وحتى اللغات التي نشأت فيها هذه الحضارة وما زالت بها أصبحت تعاني من ملاحقة المصطلحات الجديدة والاختراعات الطارئة والتحديث السريع بها، وصار ماضي تلك اللغات- نتيجة لهذا الانفجار العلمي- تراثا وتاريخا لغويا، ولعل في ظهور الاختصارات اللغوية في المسميات والابتكارات الجديدة ما يبرهن على تجاوز النظام اللغوي ماضيه وظهور منظومة ألسنية جديدة، وكمثال على هذه الحضارة اللغوية واختراقها الثقافي لن نذهب إلى المتداول اللغوي في المجتمع الغربي ولكننا سننظر إلى ذلك في المجتمع العربي، إذ نجد في المملكة العربية السعودية ملفوظا شاع تداوله واستعماله وهو(stc) مسمى شركة الاتصالات السعودية الرمزي، إذ أصبح مستخدما في لغة المثقف والعامي وكذلك الأمّي، وينطقها الكل بـ (إس تي سي) مع أن الأغلبية قد لا يعرف دلالتها الترميزية، وما هذا إلا مثال واحد من بين كثير من الأمثلة في مصطلحات ومسميات الشركات والمعاهد والبرامج والمخترعات...إلخ، وما هذا المثال التبسيطي إلا دليل على واقع اللغة في الانفجار الحضاري الجديد، وهو واقع أشبه ما يكون بالقطيعة اللغوية مع الماضي، وقد تنبه لهذا الواقع وأدركه المفكرون في مجتمعات الحضارة نفسها، ولذلك نجد الباحث الأمريكي جلن سييورج يصرح قائلاً: ((في العقدين الماضيين استطاع مجتمعنا أن

يلتهم العلوم، ولكنه لم يتمكن بعد من هضمها، وهذا مؤشر على طفولة (المجتمع العلمي) الذي حدث في العشرين عاما الأخيرة، ويجب أن نتوقع أن تكون العشرون عاما الأخيرة أكثر ديناميكية، وهذا - بالضرورة - يستوجب الإسراع في عملية الاستيعاب))(1)، فإذا كانت المجتمعات العلمية في موطن الحضارة تعاني من عملية الاستيعاب فكيف سيكون حال المجتمعات المستهلكة لهذه الحضارة وغير الفاعلة فيها، و((من العلائم الكبيرة لبداية تكون هذه الحضارة الجديدة أن منجزات العلم والتكنولوجيا والمعارف والآداب والفنون قد بدأت تكوّن لغة عالمية جديدة، تتخاطب بها جميع الشعوب، وهي لغة متعددة ميادين استخدامها، إنها لغة جديدة تؤسس للتقارب بين الشعوب والعلاقات فيما بينها، لكن شروط ترسخها وتحولها إلى حقيقة تاريخية إنما تتمثل أساساً في حوار الثقافات، الذي يجب أن تقتنع الشعوب والأمم بضرورته وبحاجتها إليه في شروط العصر الجديد))(2)، ويشير زهير الكرمي إلى عدم التمييز في الفكر العربي بين(الحضارة الغربية) و(الحضارة العلمية الحديثة)، فللأولى جذورها الدينية والفلسفية الواضحة، كما أن لها بيئة محددة ومناخ فكري مميز شأنها في ذلك شأن كل الحضارات التي سبقتها، أما الأخرى فإنها تختلف جذرياً عن أي من الحضارات التي سبقتها بما فيها الحضارة الغربية نفسها رغم أنها نشأت منها وفي جوّها ومناخها، ولعل جوهر الاختلاف في كون الحضارة الجديدة ذات ملمح عالمي عام غير مرتبط ببيئة محددة أو بوطن أو بأمة، كما أنها في طبيعتها أقرب إلى الثورة المتضاعفة منها إلى الوليد النامي،

---

23. (1)خضر القرشي، إكسير التنمية، ص378.

24. (2)كريم مروة، نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي، (بيروت: دار الساقي، 2017م)، ص87.

وموجات آثارها تتخطى الحدود وتدك الأبواب وتجتاح كل الثقافات(1).

يفهم الفكر الغربي لغة الحضارة الجديدة في نمطية من القطيعة والانفصال عن ماضيه وتراثه اللغوي، ويعالج هذا الإشكال في دينامية السير الحثيث مع التحديث اللغوي، أما الفكر العربي فإنه يظن أن الحضارة الجديدة مرتبطة بلغة مجتمعها، ولذلك يسير في تعلم اللغة الأجنبية بقانونها وماضيها التداولي ليكتشف أنه -إن أتقن هذه اللغة وأجادها- أمام واقع لغوي مختلف وسريع التحولات يحتاج معه إلى العمل بطريقة مختلفة وآلية جديدة لاستدماج الحركة العلمية، والمفارقة العجيبة أنه قد يفاجأ بأن أبناء مجتمعه الذين لم يتعلموا اللغة الأجنبية قد عرفوا وتداولوا الكثير من المصطلحات والمخترعات والمسميات الكثيرة في لغة الحضارة أكثر منه؛ نتيجة الاختراق اللغوي الذي تمارسه قنوات التواصل والمعلومات في ثورتها المعرفية الجديدة، وبهذا تكون الحضارة قد صاغت برهانا جديدا على أن اللغة وإن كانت لها بنيتها المستقلة إلا أنها لغة مخترقة باستمرار، وهذا الاختراق يمارس دوره التفكيكي والفوضوي وتبديد فكرة أن اللغة نظام سلطوي ماضوي تكون حركيته في التكرار والثبات.

وإذا كانت مجتمعات الحضارة نفسها تعيش حالة من الاغتراب اللغوي فطبيعي جدا أن يتكون المجتمعات المستهلكة أو المتأخرة عن ركب الحضارة تعيش هذه الحالة بصورة أشد، ولكن الحلول في هذا المأزق لا تعني الذهاب إلى مأزق آخر يحتاج إلى جهود مضاعفة وتخطيط تراتبي حين تعلم اللغة الأجنبية ظنا أنها الطريق الموصل إلى هذه الحضارة، ولكنه يكون في ((بعث نسق المعرفة العربية وإحيائها وتنميتها، وربطها بالتنمية الحديثة، حتى تؤدي العربية بالتعريب للعلوم

---

25. (1)انظر: زهير الكرمي، العلم ومشكلات الإنسان المعاصر، (الكويت: المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب،1987م)، ص113.

والتكنولوجيا، مهمة فاعلة في النمو الحقيقي للاقتصاد العربي، وذلك بتحويله من اقتصاد الريع المتواكل علميا إلى اقتصاد أصيل ينمو نموا مستداما))(1)، بمعنى نقل هذه الحضارة وتوطينها حتى نعيش معها انسجاما ثقافيا وتناغما اجتماعيا مع مراعاة عامل السرعة والتواصل المستمر والمباشرة الشاملة ونبذ ثنائية(الانعزال الذاتي/ الارتماء في أحضان الآخر)، كما تفعل ذلك كثير من الدول المتقدمة التي تؤسس نهضتها وتبني تنميتها المستدامة على أساس من الإيمان الكامل بقدراتها وإمكاناتها الثقافية واللغوية.

يعني هذا أن تعلم اللغة الأجنبية لم يعد الطريقة المثلى للحركة العلمية والحضارة المعاصرة لأنها بطبيعتها لا تعترف أو ترتبط بهذه اللغة، ولكن الآلية الصحيحة هي الدخول المباشر في هذه الحركة والاندماج مع لغتها الجديدة، وهذا يستلزم حركة تعريبية منفتحة واستلهاما سريعا لكل جديد من خلال الوعي الكامل بمفهوم التطور اللغوي كعامل مهم في التنمية البشرية والتطور الثقافي للمجتمع.

أمام هذا الواقع اللغوي في الحضارة الجديدة وغربته وإثارته الشديدة تفهّم الفكر العربي أن القضية قضية لغة أجنبية يجب إتقانها لينطلق بها إلى السير في ركب الحضارة غافلا عن أن هذا الاغتراب للغة أزمة تعيشها المجتمعات المتقدمة نفسها، وبذلك تشكلت رؤيته بصورة منقوصة غير متكاملة، وانحصرت تبعيته في جزئية أصبحت هامشية وغير مؤثرة في كينونة الحضارة، وكلفه هذا الفهم هدر طاقاته واستنزاف جهوده في تخبط تخطيطي لم ينتج شيئا سوى الإفاقة على واقع مأزوم وتخلف حضاري وتبعية معوّجة.

ترتبط بهذه المقارنة مقارنة أخرى تقوم على توسيع المجال ليكون بين

---

26. (1)محمد مراياتي، أسئلة اللغة، (الرباط، معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، 2002م)، ص9.

(النهضة الأدبية/ النهضة العلمية) في الثقافة العربية المعاصرة، حيث تطور الأدب العربي تطوراً ملحوظا وحدثت فيه تحولات جذرية لم يكن لها سابق مثيل في تاريخ الثقافة العربية، فالشعر العربي عبر عن روح عصره مستوعباً آليات الحداثة في الأدب العالمي بلغة عربية جديدة وتشكيل موسيقي مختلف، ((لقد صار الشعراء المعاصرون على وعي كاف بتلك الوظيفة، حيث أدركوا أن الكشف عن الجوانب الجديدة في الحياة يستتبع بالضرورة الكشف عن لغة جديدة، فليس من المعقول في شيء، بل ربما كان من غير المنطقي، أن تعبر اللغة القديمة عن تجربة جديدة. لقد أيقنوا أن كل تجربة لها لغتها، وأن التجربة الجديدة ليست إلا لغة جديدة، أو منهجا جديدا في التعامل مع اللغة. ومن هنا تميزت لغة الشعر المعاصر بعامة عن لغة الشعر التقليدية))(1)، إن ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية المعاصرة إلى لغات أخرى يدل على امتيازات فنية وموضوعية جعلت تلك الأعمال الأدبية تنطلق إلى مستوى العالمية ، وما حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية وتكريم عدد من الشعراء والروائيين العرب في المحافل الدولية إلا مؤشر دقيق على قيمة الأدب العربي في تطورات الحضارة المعاصرة، إن هذه النهضة والتطور الذي حققه الأدب العربي من الشواهد الواقعية الحية على قدرة اللغة العربية ومتانة نظامها لاستيعاب الحضارة والتطور والدخول في مجال العلوم التقنية والتكنولوجية بكفاءة واقتدار،لأن الكتابة الأدبية دائماً تقع في مستوى أعلى وخصوصية أدق من النظام اللغوي، وحينما كان ممكنا تحقيق التطور في هذا المستوى اللغوي المخصوص فإن إمكانية ذلك في المستويات اللغوية العامة أسهل بكثير، ونعني بذلك المجالات المهنية والعملية التي تحتاج إلى لغة تواصلية تقريرية مباشرة، ولعل من المهم

27. (1)عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، (بيروت: دار العودة، ط5، 1988م)،ص174.

استثمار جدلية هذا التطور اللغوي في بلورة حقيقة الأداة اللغوية التي يمتلكها الإنسان العربي، وهنا قد يظهر من يقول بأن تطور الأدب العربي ووصوله إلى العالمية لم يكن إلا بتأثير مباشر بتطور الأدب الغربي واستيعاب آلية ذلك التطور، ومع التسليم جدلاً لمثل هذه الأقوال إلا أننا نؤكد على ما يهمنا في مضمار ذلك الطرح وهو اللغة العربية التي كتب بها هذا الأدب، أما قضية التأثر والتأثير الفكري فليست محل اهتمام هذه الدراسة،بل قد يكون في ذلك إثبات قدرة العربية على توطين ونقل المعرفة في الحضارة الإنسانية المعاصرة، فاستيعاب المذاهب اللغوية بمستواها الأعلى والاتجاهات النقدية بحمولتها الفلسفية في النهضة المعاصرة للأدب العربي من الأدلة المهمة على سهولة نقل المعرفة وتوطينها في النهضة العلمية والتكنولوجية المأمول الاشتغال عليها وتولي تدبيرها، وفي هذا الصدد لا يمكن الغفلة عن التطور المماثل في المجالات الإنسانية الأخرى كالعلوم الاجتماعية والتاريخية علاوة على التطور في المحتوى المعلوماتي كما تشهد بذلك إحصائيات الأبحاث المعنية بهذا التوثيق.

المحور الثالث/ آثار التبعية اللغوية على التنمية.

يتضح مما سبق أن آثار التبعية اللغوية على أي مجتمع من المجتمعات آثار كبيرة وشاملة، فهي لا تقتصر على التبعية الثقافية وتهديد عناصر الهوية والانتماء ولكنها تتجاوز ذلك إلى هلهلة بناء النسيج الاجتماعي وهدر الاقتصاد والتنمية المستدامة، ولكننا سنتجاوز هنا قضية التأثير على الثقافة والهوية؛ ليس لعدم أهميتها ولكن اعتقادا بأن هذا التأثير قد نال مناقشته المقنعة في طروحات فكر النهضة العربية ومعالجات قضايا الوحدة والقومية والهوية العربية، وسنلتزم بمحددات هذه الدراسة ومقاصدها الملتزمة بقضية التنمية البشرية ودورها الفاعل في هوية الاقتصاد

وتطورات الحضارة الجديدة ومفاهيمها المتعلقة بتوطين المعرفة وتأسيس التنمية المستدامة، ولذلك سنقتصر على النقطتين الآتيتين:

- انهيار التبعية اللغوية:

من المسلمات أن العالم في كل عصر من عصوره يخضع لهيمنة لغوية تكون في الغالب خاضعة لعامل الهيمنة السياسية والثقافية، والتجربة التاريخية في هذا المجال تكشف عن نماذج متعددة للهيمنة اللغوية كاليونانية والعربية والفرنسية ...وغير ذلك، واليوم وفي ظل ما يسمّى بالعولمة تهيمن الإنجليزية كلغة العصر في الثقافة والعلوم، ولكن الملحوظ أن الزمن المعاصر لم تتحقق به هيمنة لغوية كاملة؛ فالإنجليزية تعاني من منافسة شديدة للغات أخرى لا تقل شأنا في حضورها السياسي والاقتصادي ثم الثقافي والفكري .. كالفرنسية والصينية واليابانية والألمانية والروسية والعبرية ...إلخ، وكأن العالم المعاصر قد استوعب التجربة التاريخية في عدم الهيمنة الدائمة وتبادل الأدوار، فأخذت جميع المجتمعات والدول المتطورة على عاتقها ضرورة بناء نهضتها وتنميتها بلغاتها المحلية، وقد بات من البديهيات أنه مع أي اختلال سياسي أو اقتصادي قد يتولى زمام الهيمنة والتسلّط الثقافي والفكري لغات أخرى وأنظمة جديدة، وستضطر جميع المجتمعات التابعة إلى دفع ضريبة التبعية والانسياق وراء صاحب الهيمنة المعاصر، لأنها ستدرك بأنها في أمسّ الحاجة إلى الركض خلف صاحب الهيمنة الجديدة والاستفادة منه وطرح ما تأسّس لديها مسبقا من تعليم وثقافة لانهيار المتبوع السابق، ولهذا السبب فقد وعت المجتمعات هذه الحقيقة واستفادت من دروس الماضي، وأصبحت جميع الدول تسعى إلى التعليم بلغاتها المحلية، حتى تلك التي استقلت مؤخرا عن الاستعمار وكانت تعاني لعقود طويلة من هيمنة المستعمر ومسخ هويتها ثقافيا وفكريا، ونماذج ذلك كثيرة في الثقافة المعاصرة وفي التجربة الكورية والفيتنامية والعبرية خير الأمثلة على ذلك.

وما ينبغي أن يدركه التخطيط اللغوي في الفكر العربي أن التجربة التاريخية

في هيمنة اللغة وسيادتها تثبت دائما عدم الثبات والاستقرار، و((قضية اندثار اللغات قضية محسوسة في التاريخ الإنساني، فكم من اللغات كانت ذات صولة وجولة، كتبت بها العلوم وسجلت بها أروع ما أنتجه العقل البشري من آداب وفنون، وانتشرت في مساحات واسعة من الأرض ولكن عوادي الزمان عدت عليها))(1)، وبعيدا عن الاستقراء التاريخي في تاريخ اللغات وما آلت إليه هيمنتها في العصور الماضية فلعل من أقرب شواهد ذلك الأمر انحسار الفرنسية على حساب الإنجليزية في العصر الحديث، ويعد الفرنسيون هذا الأمر هزيمة تاريخية لهم بسبب ((تأثير الفتح الروماندي في إنجلترا في القرن الحادي عشر الميلادي، و به صارت الفرنسية في إنجلترا هي لغة البلاط والقضاء والبرلمان، واللغة الرسمية للدولة مدى قرنين تقريبا))(2)، مما يعني أن الإنجليزية كانت تحت الاستعمار الفرنسي في يوم من الأيام ! ولكن المؤلم جدا أن المجتمع العربي هو صاحب التجربة المتفردة في هذا المجال فقد استطاع الاستقلال السياسي والعسكري ولكنه لم يحقق الاستقلال الثقافي والفكري، ففهم الاستقلال فهما قاصرا ولذلك لم تنجح جميع مساعي المجتمعات العربية في مشاريعها التنموية والتعليمية وبناء النهضة والرقي بالمستويات الاقتصادية والاجتماعية للشعوب العربية، فالوطن العربي يعاني من تبعية الإنجليزية مشرقا والفرنسية مغربا – نعني هنا التبعية اللغوية – وكأنه بذلك مازال رهين الاستعمار .

ففي الوقت الذي تحتل به الإنجليزية مكانة ملحوظة وتأثيراً عارماً نجد

28. (1)أحمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة،(الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 2001م)، ص64.

29. (2)محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، (بيروت: دار العودة، 1987م)، ص116 .

فرنسا ((من أكثر أهل الأرض اعتناء بلغتها وحرصا عليها وعلى نشرها بين الناس، والمحافظة على المناطق التي انتصرت فيها هذه اللغة وانتشرت فيها، وتتبدى جهودها المكثفة في أنشطة كثيرة سواء من خلال المؤسسات المختلفة أو من خلال منظمة الفرنكفونية التي أصبحت منظمة سياسية تستقطب الدول الناطقة بالفرنسية))(1)، بل إن وزير الثقافة الفرنسي في أحد المؤتمرات العالمية أشار علانية إلى ((صرخة القارة الأوروبية بالفرنسية لوقف هذه العولمة: ياثقافات العالم اتحدي ضد الغزو الثقافي الأمريكي، وتخلصي من وطأة الإنكليزية))(2)، ومع أن هذا الصراع اللغوي يشير بشكل مباشر إلى الوعي الحضاري بدور اللغة في الاقتصاد والتنمية الوطنية إلا أن ما يهمنا فيه أثر التبعية اللغوية الفرنسية في الوطن العربي في مرحلة زمنية قريبة جدا حينما كانت الفرنسية اللغة العالمية المهيمنة، فقد بدأ كثير من البلدان العربية يدرك واقع هذه الأزمة وآثارها الاجتماعية والاقتصادية كما في لبنان وبلاد المغرب العربي، ففي لبنان مثلا كانت السياسة اللغوية بعد الانتداب الفرنسي على سورية ولبنان عام 1992م تنص في الدستور الجديد على اعتبار اللغة الفرنسية لغة رسمية وفرضها في المعاهد الخاصة واشتراط معرفتها والإلمام بها على طالب العمل...، أما الانجليزية فلم تكن (ثنائية لغوية عربية انجليزية في لبنان، لأنها لم تكن لغة طائفة، ولم تكن لغة المستعمر في ذلك الحين، ولم تكن اللغة الأجنبية الأساسية في لبنان))(3)، ولكن ما حدث بعد ذلك في أواخر القرن العشرين أن ((اكتسحت العولمة بسياساتها واقتصادها وثقافتها المنطقة برمتها، وصارت اللغة

---

30. (1)أحمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة، ص66.

31. (2)نسيم الخوري، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2005م)، ص431.

32. (3)انظر:حسن حمزة وآخرون، التخطيط والسياسة اللغوية، ص79-80 .

الانجليزية طريق الخلاص عند عدد كبير من اللبنانيين الساعين إلى الهجرة التي صارت في بعض الأحيان أمنية لا تعادلها أمنية. أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى خفوت الصراع الذي كان محتدما بين دعاة التمسك باللغة الفرنسية ودعاة التعريب،فلم يعد الأولون قادرين على الوقوف في وجه اللغة الإنكليزية ولم يعد الآخرون متمسكين بالتعريب))(1)، وكانت نتيجة التبعية الفرنسية في السياسة اللغوية اللبنانية تلاشي الآمال والأحلام المعقودة في هاجس المجتمع اللبناني بعد انحسار أهمية الفرنسية وهيمنتها السابقة علاوة على الهدر المالي والثقافي الذي استنزفته تلك السياسة اللغوية، ولكن الإشكالية الكبرى أن هذه السياسة لم تستفد من تجربتها السابقة في فشل التبعية السابقة وانساقت في إطار تجربة تبعية جديدة ستكون نتيجتها كنتيجة سابقتها في يوم من الأيام.

وفي تونس التي كانت تعيش تبعية لغوية منظّمة ومدعومة ماليا وإعلاميا من الحكومة الفرنسية، أصبحت الفرنسية تعاني ((من عجزها عن المنافسة العالمية مقارنة بالإنكليزية أو حتى لغات أخرى))391، وبعد تبعية طويلة للفرنسية أصبحت الحاجة إلى الإنجليزية -لجدواها الاقتصادية وما توفره من فرص العمل- مطلبا اجتماعيا جديدا، مما يدل عل فشل التبعية السابقة والبحث عن تبعية جديدة وهذا ما تشير إليه أرقام وإحصائيات وزارة التعليم التونسية الجديدة،، وما يقال عن التبعية اللغوية في لبنان أو تونس يمكن قوله عن بلاد المغرب العربي وأوطان عربية أخرى ، كما أنه يتسق بشكل متشابه مع تجارب لغوية في مجتمعات أخرى من الدول المصنفة في درجة العالم الثالث .

-نزيف الأدمغة / هجرة العقول .

---

33. (1)السابق، ص105.

يعالج موضوع نزيف الأدمغة وهجرة العقول العربية بشكل كبير جدا في كتابات كثير من المفكرين والمثقفين المتخصصين وكذلك المؤسسات والهيئات الرسمية، حيث((تمثل هجرة العقل العربي وغربته عن وطنه ومجتمعه إحدى الارتباطات الخطيرة بالتعليم بلغة أجنبية وتفكيك الهوية العربية، فثمة اتفاق واضح بين دراسات الآثار السلبية للتعليم بلغة أجنبية على أنه يمثل البوابة الرئيسة لهجرة العقول العربية أو هجرة الأدمغة العربية إلى خارج وطنها))(1)، واللافت للانتباه أن الأرقام في كثير من التقارير والإحصائيات المعنية بذلك تبدو مخيفة إلى حد الذهول، حيث((تشير الإحصاءات المأخوذة من الدراسات التي قامت بها جامعة الدول العربية ومنظمة العمل العربية ومنظمة اليونسكو وبعض المنظمات الدولية والإقليمية المهتمة بهذه الظاهرة إلى الحقائق الآتية :

- يسهم الوطن العربي في ثلث هجرة الكفاءات من البلدان النامية .
- إن 50٪ من الأطباء و 23٪ من المهندسين و 15٪ من العلماء من مجموع الكفاءات العربية المتخرجة يهاجرون إلى أوربا والولايات المتحدة وكندا بوجه خاص .
- إن 54٪ من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج لا يعودون إلى بلدانهم .
- يشكل الأطباء العرب العاملون في بريطانيا حوالى 34٪ من مجموع الأطباء العاملين فيها .
- إن ثلاث دول غربية غنية، وهي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا تصطاد 75٪ من المهاجرين العرب، بل أكثر من ذلك قامت بعض الدول الغربية بمنح جنسياتها للعقول العربية المهاجرة حتى يكون هناك نوع من الولاء والانتماء لها .
- يهاجر 100000 من العلماء والمهندسين والأطباء والخبراء كل عام من ثمانية

34. (1)أحمد حسين حسنين ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، ص373.

أقطار عربية (سوريا – لبنان – العراق – الأردن –مصر – تونس – المغرب – الجزائر) .

- بلغت خسائر الدول العربية التي ترتبت على هجرة عقولها حوالى 200 مليار دولار)) (1).

والحقيقة أن كثيرا من الأبحاث والدراسات المهتمة بذلك قد اعتمدت على الاستنساخ والتكرار في كثير من طروحاتها بهذا الشأن، فدائما ما تتمركز دراساتها في بحث أسباب الهجرة وحصر ذلك في الأبعاد السياسية،كعدم الاستقرار السياسي، وضعف الحريات العامة، وانتشار الفساد والمحسوبية، أو الأبعاد الاقتصادية كانخفاض مستوى المعيشة وعدم الاستقرار الوظيفي ..إلخ، دون الوعي بالاستنزاف الاقتصادي وهدر التنمية البشرية في تلك المجتمعات، لأن معظم هذه الإحصائيات تصدر من جهات معنية بمبادئ حقوق الإنسان ومعالجة الفقر والبطالة بصورة آنية وعاجلة دون التعمق في إصلاح الخلل الأساسي حينما((تؤدي الهجرة إلى حرمان اقتصادات ومجتمعات الدول المرسلة من القوة العاملة الأكثر فتوة والأكثر مبادرة فيها))(2)، ويتبع ذلك في تفاقم الإشكالية أن((المهاجرين لا يرغبون أو هم غير قادرين على ترك مواطنهم الجديدة والعودة إلى أوطانهم الأصلية بعد حصولهم على الخبرات العلمية والمهارات التقنية التي يمكنها النهوض بالتنمية في

35. (1)نزار قنوع وغسان إبراهيم و جمال العص، هجرة الكفاءات العلمية العربية (النقل المعاكس للتكنولوجيا)، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية المجلد (28) العدد (1)، 2006م..

36. (2)سلام الكواكبي، الهجرة الدولية والتنمية في بلدان الإسكوا:التحديات والفرص، ص68

أوطانهم، ومن هنا يمكن أن تشكل هذه الهجرة خسارة اقتصادية وتقنية لا يمكن تجاهل أثرها على التنمية))(1)، ولعل أرقام الإحصائية التي ذكرناها سابقا كفيلة

37. (1)السابق، ص71.

38. قائمة المصادر والمراجع:

39. أحمد حسين حسنين وأنور الجمعاوي ومجموعة مؤلفين، اللغة والهوية في الوطن العربي، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، 2013م).

40. أحمد الضبيب، اللغة العربية في عصر العولمة،(الرياض: مكتبة العبيكان، ط1، 2001م)

41. حسن احجيج، نظرية العالم الاجتماعي قواعد الممارسة السوسيولوجية عند بيير بورديو،(الرباط: مؤمنون بلاحدود، ط1، 2018م).

42. حسن حمزة وعلي القاسمي ومجموعة مؤلفين، التخطيط والسياسة اللغوية، (الرياض: مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، ط1، 1417ه).

43. حمد آل فريان، جريدة الجزيرة، (الرياض، العدد13974 ، 1/ 1/ 2011م).

44. خضر القرشي، إكسير التنمية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط1 ، 2016م).

45. روبرت فليبسون، الهيمنة اللغوية، ترجمة(سعد الحشاش)، (الرياض: جامعة الملك سعود، 2007م).

46. زهير السباعي، تجربتي في تعليم الطب باللغة العربية،(الدمام، نادي المنطقة الشرقية الأدبي، 1995م).

47. زهير الكرمي، العلم ومشكلات الإنسان المعاصر، (الكويت: المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب،1987م).

48. سلام الكواكبي، الهجرة الدولية والتنمية في بلدان الإسكوا:التحديات والفرص،(نيويورك:هيئة الأمم المتحدة، 2011م).

49. سيف المعمري، جريدة الرؤية العمانية، 26/ 6/ 2016م.

=

بالنهوض الكبير في الوطن العربي لو كان هناك وعي بمكان استثمارها الصحيح.

=

50. https://alroya.om/post/165762 الموقع الإلكتروني، تاريخ المشاهدة 26/ 7/ 2018م.
51. عثمان سعدي، جريدة الرياض، العدد(16623)،28/ 12/ 2013م).
52. عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية، (بيروت: دار العودة، ط5، 1988م).
53. كريم مروة، نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي، (بيروت: دار الساقي، 2017م).
54. محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، (بيروت: دار العودة، 1987م).
55. محمد مراياتي، أسئلة اللغة، (الرباط، معهد الدراسات والأبحاث والتعريب، 2002م).
56. محمود الذوادي، المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها، (الرياض، مركز الملك عبدالله الدولي لخدمة اللغة العربية، 2015م).
57. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات،(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،2001م).
58. نزار قنوع وغسان إبراهيم و جمال العص، هجرة الكفاءات العلمية العربية (النقل المعاكس للتكنولوجيا)، مجلة جامعة تشرين للدراسات و البحوث العلمية _ سلسلة العلوم الاقتصادية والقانونية المجلد (28) العدد (1)، 2006م.
59. نسيم الخوري، الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 2005م).

إن الوطن العربي حينما يعلم أبناءه باللغة الأجنبية ويتخذها لغة للتنمية والنهضة التعليمية والفكرية إنما يلبس ثوبا مستعارا، فالجيل المتعلم باللغة الأجنبية سيكون خسارة على وطنه ومجتمعه، لأن كل عقل مفكر وعالم مؤثر وصاحب مؤهل عال أو تخصص فريد مهما كان .. ؛ عند وجود أي اختلال سياسي أو اقتصادي سيجد وطنا آخر يرحب به ويرفع قيمته ويضمن له عيشا آمنا، أما وطنه الأصلي فسيخسره لأي ظرف طارئ على حياة واستقرار ذلك الوطن، وما خسره الوطن العربي من علمائه ومفكريه وكفاءاته في هذا العصر لم يكن ليحدث لو أن تلك الكفاءات كان تعليمها وبحثها وإنتاجها بلغتها الوطنية .

الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات:

وقفت هذه الدراسة على إشكالية التبعية اللغوية في المجتمع العربي متخذة أسلوبـًا مختلفـًا عن الممارسة التقليدية في ضبط هذه الإشكالية وطريقة معالجتها، وذلك حين تحصر تلك الممارسة جل اهتمامها في قضية الهوية والانتماء غير واعية بتطورات الحضارة المعاصرة حينما جعلت اللغة ركيزة أساسية في التنمية البشرية والاقتصاد المعرفي وما يتمحور في هذا المضمار من نهضة المجتمع وتنميته المعرفية والاقتصادية، وفي سبيل السعي نحو منهج مختلف في ضبط الإشكالية ومعالجتها فقد قامت هذه الدراسة بعقد مقارنة متعددة التوجهات تعتمد على الواقع اللغوي في المجتمع، فقارنت أولا بين التبعية اللغوية في المجتمع العربي ونماذج لهذه التبعية في مجتمعات أخرى، وبينت في هذه المقارنة كيف استطاعت تلك المجتمعات التخلص من آثار الاستعمار والتحرر الثقافي من هيمنته على حين لم يستطع المجتمع العربي تحقيق هذا التحرر والتخلص من رواسبه الباقية في الثقافة والفكر، وفي مقارنة أخرى نظرت إلى تدريس الطب في الوطن العربي باللغة العربية واللغة الأجنبية كأنموذج ماثل للتبعية اللغوية، وكانت نتيجة هذه المقارنة بعد فحص

الإحصاءات والدراسات المعنية بذلك عدم وجود أي قيمة للتبعية اللغوية علاوة على آثارها المستقبلية في شطر المجتمع لغويا واستنزاف مدخراته وثرواته في اتجاهات غير صحيحة، وفي مجال آخر من هذه المقارنات تبين كيف استطاع المجتمع العربي مجاراة التطور العالمي في الإبداع الأدبي واستثمار آليات النقد الجديدة بلغته العربية على حين لم يستطع الوصول إلى ذلك في المجالات العلمية والتقنية التي تمارس فيها التبعية اللغوية، وقد اعتمدت هذه الدراسة في مقارناتها السابقة على مقاربة حجاجية تلتزم بمحددات المنطق والأسلوب العقلاني بعيدا عن الاندفاعات العاطفية وهوس الذاتية المفرطة في الطرح والمعالجة.

وحينما أعملت هذه الدراسة كثيرا من اهتمامها على الواقع اللغوي فإنها لم تغفل عن استشراف المستقبل والتركيز على تبني سياسة لغوية وتخطيط مستقبلي يكون مبنيا على أسس تنموية وأهداف نهضوية، فبينت النتائج السلبية للتبعية اللغوية حين انهيار المتبوع سياسيا أو اقتصاديا؛ والضريبة التي تدفعها المجتمعات التابعة حين حدوث مثل هذه الأمور، وقد حرصت الدراسة على إبراز وعي المجتمعات المتطورة بهذه القضية واستفادتها من التجارب السابقة في هذا المجال، كما حاولت الدراسة التركيز على هجرة العقول العربية وبينت بالأرقام والإحصاءات مدى ما يخسره الوطن العربي ويستثمره الآخرون في هذا الاستنزاف التنموي الذي لو كان موجها في طريقه الصحيح لكان كفيلا بتحقيق النهضة العربية وتنمية الإنسان العربي.

وفي سبيل تأطير الفهم القاصر لجدوى التبعية اللغوية وأهميتها في تحقيق التنمية ونقل التقنية كان من الضرورة استعراض دور الحضارة المعاصرة في النظام اللغوي والتطور السريع والمتراسل في المنتجات والمصطلحات مما جعل الاختراق اللغوي ملمحا رئيسا في واقع الحضارة الجديدة، وهو مايعني بالتالي أن قضية النهوض ليست في التبعية اللغوية وتعلم اللغات الأجنبية ولكنها في طبيعة

الحضارة ذاتها وديناميتها اللغوية وهو ما بات محسوسا لدى أصحاب تلك الحضارات نفسها، ولذلك أصبح من الضروري الوعي بهذا التطور اللغوي والدخول المباشر في طبيعة الحضارة وواقعها اللغوي بفتح منافذ التهريب والمثاقفة المستمرة لإثراء المحتوى اللغوي واستيعاب التطور الحضاري للغة بصورة تتناسب مع واقع الحياة المعاصرة.

وأخيرا فإن هذا البحث حاول الوقوف على واقع التبعية اللغوية وآثارها على التنمية والنهضة العربية مدركا إمكانية النهوض وتحقيق التطور عند اتباع سياسة لغوية صحيحة وجعل اللغة ركنا رئيسا في كل رؤية تسعى إلى التطور والنهوض، والإمكانات الذاتية للأمة العربية وتاريخ لغتها وعدد متكلميها قادر على تحقيق ذلك بكل كفاءة واقتدار، والطريق الموصل إلى ذلك هو السياسة اللغوية الصحيحة والتخطيط السليم.

Language Dependency- the Arabic Renaissance and Development- language arabic

Haged Dumaithan Al-Harbi
Associate Professor of Modern Literature and Criticism Arabic Department – Collage of Arts – King Saud University

Abstract

This study discusses the issue of a foreign language in Arabic education and its impact on the renaissance and national development. The study depends on the modern cultural perspective on the language and its role in the human development and also on how the linguistic dependency leads to the disintegration of the social fabric and the migration of competencies and neglect of sustainable development. In this study, the linguistic reality is also reviewed with a very detailed analysis based on other linguistic experiences, and the current Arab experience to understand the mechanism of linguistic planning between the reality and expectations.